شرح كتاب الفتن من صحيح البخاري الجزء الأول

كتاب الفتن من صحيح البخاري
قال الإمام البخاري – رحمه الله - :
7048 - حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا بشر بن السري، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبي مليكة، قال: قالت أسماء: عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " أنا على حوضي أنتظر من يرد علي، فيؤخذ بناس من دوني، فأقول: أمتي، فيقال: لا تدري، مشوا على القهقرى " قال ابن أبي مليكة: »اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو نفتن«
7049 - حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة، عن مغيرة، عن أبي وائل، قال: قال عبد الله: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " أنا فرطكم على الحوض، ليرفعن إلي رجال منكم، حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني، فأقول: أي رب أصحابي، يقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك "
7050 - حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن أبي حازم، قال: سمعت سهل بن سعد، يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: »أنا فرطكم على الحوض، فمن ورده شرب منه، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبدا، ليرد علي أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم« قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش، - وأنا أحدثهم هذا، فقال: هكذا سمعت سهلا، فقلت: نعم، قال: وأنا - أشهد على أبي سعيد الخدري، لسمعته يزيد فيه قال: " إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما بدلوا بعدك، فأقول: سحقا سحقا لمن بدل بعدي "
الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه
فمن نعمة الله سبحانه وتعالى ومن رأفته ورحمته بنا وبأمة محمد أن أوحى إلى نبيه بتحذير هذه الأمة مما ستقع فيه من فتن وبلايا تمر هذه الفتن على قلوب العباد فتزلزلها وتؤثر فيها سلباً ، حتى إن بعضهم يصبح مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمنا ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا .
فبيّن لنا هذه الفتن وبين طريق الخلاص منها والحذر ، وبين لنا أيضاً أسباب وقوعها لنحذرها .
فلم يترك النبي شيئاً إلا وضحه لهذه الأمة وبينه قبل موته عليه الصلاة والسلام ؛ حتى قال أبو ذر رضي الله عنه : لقد مات النبي وما من طائر يقلّب جناحيه في السماء إلا وذكر لنا منه علماً .
وقال سلمان الفارسي : لقد علمنا رسول الله كل شيء حتى الخراءة .
وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : والله إني لأعلمُ الناسِ بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة .
ثم ذكر أن النبي لم يسرّ له بذلك سرّاً ؛ وإنما ذكره لأصحابه وعلمهم ، ولكن الناس حفظ منهم من حفظ ونسيً منهم من نسي ومات منهم من مات ، فكان رضي الله عنه أعلم زمانه بالفتن التي أخبر النبي عنها .
ولعظم خطر هذه الفتن ولشرها ولكثرتها في هذا الزمان ؛ انتقينا شرح هذه المسألة من صحيح البخاري ، فمعلوم ما لصحيح البخاري من مكانة من ناحية الصحة ومعلوم ما في تبويبات الإمام البخاري – رحمه الله - من فقه وعلم في هذه المسائل وغيرها حتى قال أهل العلم : إن فقه الإمام البخاري في تبويباته .
فبدأ المؤلف رحمه الله بقوله (كتاب الفتن)
الفتن ؛ جمع فتنة ، وهي في اللغة : الابتلاء والامتحان والاختبار ، وأصلها مأخوذ من قولك : فَتَنْتَ الفضة والذهب ؛ إذا أذبتهما بالنار لتمييز الرديء من الجيد .
وأما في الشرع ؛ فأطلقت على عدة معانٍ ؛ منها :
المحنة وهي الاختبار ، والمال ، والأولاد ، والكفر والشرك ، والإحراق بالنار ، وغير ذلك من المعاني الكثيرة التي ذكرها أهل العلم والتي وردت في الكتاب والسنة .
والمقصود بها هنا هي المصائب والبلايا والعقوبات التي تنزل بالعباد .
ولا نتحدث هنا في الفتن الخاصة ؛ وهي فتنة الرجل في ماله وأهله وولده ؛ فهذه فتن خاصة تكفرها الصلاة والصيام والزكاة ، كما جاء في حديث حذيفة ؛ ولكن الحديث هنا عن الفتن العظيمة الكبيرة ، التي وصفت بأنها تموج كموج البحر من عظمها وكثرتها وكثرة تخبط من تناله ، فيكثر فيها الشر بأنواعه من منازعة ومخاصمة ومقاتلة وسفك للدماء .
قال المؤلف – رحمه الله : - (باب ما جاء في قول الله تعالى { واتقوا فتنة لاتُصيبَنّ الذين ظلموا منكم خاصة } وما كان النبي يُحَذِّر من الفتن)
هذا الباب معقود لبيان ما ورد في القرآن والسنة من التحذير من الفتنة ، ووجوب اجتناب أسبابها والوقوع فيها .
والحديث عن الفتنة العامة التي تعمّ ولا تخصّ بعض الأفراد ؛ كما ذكرنا ، وكما ذكر في الآية : { واتقوا فتنة لا تُصيبَنّ الذين ظلموا منكم خاصة }فهي فتن عامة .
وأما الآية التي سبقت هذه فهي قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون { 24 } واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب {

{ 25 [الأنفال : 25 26 –] .
(يا أيها الذين آمنوا) خطاب لجميع المؤمنين ؛ فهو لفظ عام شامل .
(استجيبوا لله وللرسول) أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله .
(إذا دعاكم لما يحييكم) أي إذا أمركم بالإيمان الذي يحي القلوب ، وللإسلام والالتزام بأوامره وأوامر رسوله ، الذي دعانا إلى التوحيد والسنة والطاعة ، ونهانا عن الشرك والبدع والمعاصي ، وفي ذلك حياة القلوب وسلامة الأبدان ، فالإيمان نور للقلب من ظلمته ، وحياة له من موته .
وقد جرب كثير منا الحال قبل الإيمان وبعده ، أو قبل كماله ونقصانه ؛ فيجد الفرق في قلبه ، ويشعر بحياته .
(واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) أي يمنع المرء من الإيمان والكفر إلا بإذنه ،.
فالله عز وجل هو الذي يأذن بذلك ؛ فلا يكون شيء في هذا الكون إلا بإذنه تبارك وتعالى .
ويحول ؛ بمعنى يحجز بين الشخص وبين قلبه ، فالإيمان والكفر من عمل القلوب ، ولذلك نكثر من دعاء الله ؛ يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك .
ونستجيب لله وللرسول بالطاعة ؛ فهذا من أسباب الثبات على الحق .
(وأنه إليه تحشرون) يوم القيامة ؛ فيجازيكم بأعمالكم ، فمن عمل خيرا جزي به ومن عمل شراً جزي به ؛ فبادروا لطاعته .
(واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) أي ؛ احذروا واجتنبوا فتنة عامة تصيبكم جميعاً ، لا تختص بالفسقة والمخالفين للشرع والظلمة لأنفسهم ولغيرهم والخارجين عن الطاعة فحسب ؛ بل تعمّ الصالح والطالح .
كما جاء في حديث ابن عمر في » صحيح مسلم « قال : قال رسول الله » : إذا أراد الله بقوم عذاباً نزل العذاب ..
فالعذاب يعمّ والرحمة تخص كما قال أهل العلم بناء على ما استقرؤه من النصوص.
ولوقوع الفتنة العامة أسباب ، يمكن تلخيصها في سببين :
· الأول : انتشار الفساد وكثرته بين الناس .
· والثاني : ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
والثاني سبب لانتشار الأول ؛ فإذا ظهر الفساد بين الناس وظهرت المعاصي وظهر الفجور ، ثم ترك ذلك ولم ينكر ؛ عمّ وطمّ في البلاد .
ودليل الأول ؛ وهو انتشار الفساد ، على أنه سبب في وقوع الفتن ؛ الآية المذكورة نفسها ؛ فسبب وقوع الفتنة ظلم الناس بارتكابهم للبدع والمعاصي والذنوب.
وفي حديث زينب بنت جحش في » الصحيحين : « » أن النبي استيقظ من نومه وهو يقول » : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذه - «وأشار النبي صلى الله عليه وسلم بيده - فقالت زينب : يا رسول الله ! أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال » : نعم ؛ إذا كَثُرَ الخَبَثُ « .
والخَبَثُ ؛ هو المعاصي والذنوب والبدع والمنكرات .
إذا كثر الخبث يهلك الله تبارك وتعالى الجميع الصالح والطالح إلا من رحم .
وقال » : إذا ظهر السوء في الأرض ، أنزل الله بأهل الأرض بأسه « ، قالت عائشة : وفيهم أهل طاعة الله ؟ قال » : نعم ؛ ثم يصيرون إلى رحمة الله . « أخرجه أحمد في » مسنده « .
فهذا يدل على أن كثرة الفساد سبب لوقوع الفتنة ، فاجتنابها يكون باجتناب انتشار المعاصي والبدع .
وأما الدليل على أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب لوقوع الفتن ؛ فقوله » :والذي نفسي بيده ، لتأمُرُنّ بالمعروف وَلَتَنْهَوُنّ عن المنكر ، أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعنّه فلا يستجاب لكم . « أخرجه أحمد والترمذي .
ثم قال الله عز وجل في آخر الآية (واعلموا أن الله شديد العقاب) ، فإذا نزلت الفتنة ؛ فإنها تنزل شديدة – نسأل الله السلامة والعافية – وعمّت الجميع.
والشاهد من ذكر الإمام البخاري للآية قوله تعالى { فاتقوا فتنة } يعني احذروا من وقوع فتنة عامة تصيب الصالح والطالح ، ففي هذا تحذير من الفتنة ويحذر المرء منها بمعرفة أسبابها واجتنابها .
وسيذكر المؤلف أسباب الفتنة ؛ وكلها ترجع إلى ما ذكرنا .
ثم بدأ المؤلف بذكر أحاديث فيها أسباب الفتن التي تؤدي إليها ؛ فقال :
حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا بشر بن السري، حدثنا نافع بن عمر، عن ابن أبي مليكة، قال: قالت أسماء: عن النبي ، قال: » أنا على حوضي أنتظر من يرد علي، فيؤخذ بناس من دوني، فأقول: أمتي، فيقال: لا تدري، مشوا على القهقرى « قال ابن أبي مليكة: » اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو نفتن« .
(أسماء) هي أسماء بنت أبي بكر الصديق أخت عائشة من أبيها رضي الله عنهم .
قال النبي : (أنا على حوضي أنتظر) حوض النبي مكانه في عرصات القيامة ، في الساحات الواسعة التي يحشر الناس فيها ، يشرب منه الناس في الموقف .
والحوض ؛ مكان منخفض تجتمع فيه المياه ، وهو خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم .
وقد جاء وصف حوض النبي في السنة ؛ فقال » : حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه – وهي أوانيه التي يُشرب بها – كنجوم السماء ، من شرب منه فلا يظمأ أبداً « متفق عليه .
وأحاديثه متواترة والإيمان به من عقيدة أهل السنة والجماعة .

يأتيه المسلمون ومن معهم من المنافقين - الذين كانوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر في الدنيا - للشرب منه والنبي عنده .
قال : (فيؤخذ بناس من دوني) أي يمنع بعض الناس من الشرب من الحوض .
قال : (فأقول أمتي) أي إنهم من أمتي ، وأمته لا يمنعون من الشرب منه .
فيقال له : (لا تدري ؛ مشوا على القهقرى) أي إنك لا تدري ما أحدثوه من بعدك ، إنهم رجعوا إلى الخلف من بعدك ولم يسيروا على الطريق إلى الأمام ، فغيروا وبدّلوا وأحدثوا في دين الله ما ليس منه .
والقهقرى ؛ هو الرجوع إلى الخلف ، وهي كناية عن التغيير والتبديل في دين الله .
فهؤلاء وقعوا في الفتنة بعد النبي بسبب الإحداث والتغيير في الدين .
(قال ابن أبي مليكة) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة ؛ تابعي ، قال : أدركت ثلاثين من الصحابة .
(اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن) تعوّذ من الرجوع على العقب ، أي إلى الخلف ، وهو كناية عن مخالفة الأمر والوقوع في البدع والمحدثات الذي تكون الفتنة بسببه ، واستعاذ من الوقوع في الفتن بشكل عام .
وفي الرواية التي بعدها قال :
(أنا فَرَطُكُم على الحوض) أي أنا الذي يتقدمكم على الحوض ، فيكون أول من يحضره .
وقال فيها (ليرفعنّ إلي رجالٌ منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختُلِجوا دوني) وفيها دليل على أن النبي هو الذي يسقي أمته من حوضه بيده .
وأن المذكورين الذين لا يُسْقَون من أمة محمد ؛ لأنه قال » رجال منكم « وهذا في الظاهر ، ولكنهم في الحقيقة قد غيّروا وبدّلوا .
فهل هذا التغيير تغيير في الأصول تغيير كلي حتى إنهم كفروا به ، أما تغيير جزئي في البدع والمعاصي ؟
فيهم قولان :
-1 قول بأنهم المنافقون ؛ وهؤلاء كفار وإن كانوا في الظاهر من أمة محمد .
-2 وقول بأنهم مؤمنون إلا أنهم أحدثوا في دين الله ما ليس منه فاستحقوا الطرد والإبعاد.
ولا يبعد أن يكون الجميع مرادا بهذا الحديث .
ومعنى » أهويت « أي مددت يدي لأناولهم .
و » اختلجوا دوني « أي اجتُذبوا واقتطعوا فلم أصل إليهم .
وقال (لا تدري ما أحدثوا بعدك) هذه تفسر الرواية التي قبلها ، فالروايات تفسر بعضها بعضا ، والإحداث ؛ التغيير في دين الله إما بالمعاصي أو بالبدع أو بالنفاق اللفظ يحتمل هذا كله .
وفي الرواية التي بعدها قال (لَيَرِدَنّ عليّ الحوضَ أقوامٌ أعرفهم ويعرفوني) فيعرف النبي أمته بآثار الوضوء كما جاء في حديث آخر ، وهم يعرفونه بصفاته .
وقال (إنهم مني ؛ فيقال : إنك لا تدري ما بدّلوا بعدك ، فأقول : سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي) أي بُعْداً بعدا ، فيدعو عليه بالبعد ؛ لأحداثه في الدين.
والشاهد من هذه الآثار :
أنها تتضمن ؛ الوعيد على التبديل والإحداث ؛ فإن الفتن غالباً تنشأ عن ذلك عن التغيير بالمعاصي والبدع وغيرها من أنوع الخروج عن طاعة الله ، فهي سبب من أسباب الفتن ؛ فيجب اتقاءها والحذر منها .
قال المؤلف – رحمه الله : - (باب قول النبي » : سترون بعدي أموراً تنكرونها « .
وقال عبد الله بن زيد » : قال النبي » : اصبروا حتى تلقوني على الحوض «).
هذا الباب معقود لبيان سبب ثان من أسباب الفتن ، وهو داخل في عموم السبب الأول ولكنه خص بالذكر لعظمته ؛ وهو الخروج على أئمة الجَوْرِ والظلم والطغيان ، فالخرةج على هؤلاء سبب عظيم من أسباب الفتن .
لذلك بوب الإمام البخاري رحمه الله باب » سترون بعدي أموراً تنكرونها « فوقوع المنكرات منهم أمر حاصل ولابد ، وقال في حديث عبد الله : اصبروا حتى تلقوني على الحوض ، فذكر طريقة العلاج .
وعدم طاعة النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك معصية وهي سبب وقوع الفتن أيضا ، وأول فتنة وقعت في الإسلام كانت في الخروج على الحاكم وهي فتنة قتل عثمان رضي الله عنه ، فوقع السبف في أمتي محمد صلى الله عليه وسلم فلا يرفع إلى قيام الساعة .
وبقي الخروج على الحكام مستمرا ، وضرب كثير من المسلمين بهذه الأحاديث عرض الحائط ولم يأخذوا بها ، وخرجوا على الحكام فوقعت الفتن وسفكت الدماء وانتهكت الأعراض وسلبت الأموال والله المستعان .
وذكر المؤلف في تبويبه قطعتين من حديث سيأتي شرحه ضمن أحاديث الباب .
قال المؤلف :
حدثنا مسدد ، حدثنا يحيى بن سعيد القطان، حدثنا الأعمش، حدثنا زيد بن وهب، سمعت عبد الله، قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: »إنكم سترون بعدي أثرة وأمورا تنكرونها« قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: »أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم« .
(إنكم سترون بعدي أَثَرَةً) الأثرة ؛ الاستئثار ، والمعنى أنكم ستجدون من بعدي أمراء يقدِّمون أنفسهم في الأموال والحقوق ، ولا يعطونكم حقوقكم من ذلك .
قال (وأموراً تنكرونها) أي أنكم ستجدون منهم منكرات ؛ فيدخل في ذلك المعاصي والبدع وأنواع المخالفات الشرعية .

فلا يذهبن أحد إلى أحاديث عامة كقوله صلى الله عليه وسلم : " من رأى منكم منكرا فليغيره ..." ويقول أريد أن أخرج على الحاكم لأغير المنكر ، ويترك الأحاديث الخاصة التي وردت في ذلك ، كما يحصل اليوم من الفرق والجماعات الموجودة ، هذا من اتباع الهوى ؛ فالأخذ بالأحاديث الخاصة مقدم على الأحاديث العامة في لغة العرب وعند جميع أهل العلم .
(قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله) سأله الصحابة عن كيفية التعامل مع هؤلاء الأمراء .
فقال (أدّوا إليهم حقّهم ، وسلوا الله حقكم) هذه طريقة العلاج ، أدّوا إليهم حقهم الذي جعله الله حقاً لهم ، وهو السمع والطاعة في غير معصية الله .
وفي هذا ردٌّ على الخوارج الذين يقولون بأن الحاكم الظالم الذي لا يحكم بشرع الله لا سمع ولا طاعة له مطلقاً ؛ مخالفين بذلك صريح قول النبي ؛ فإن هذا الحاكم الذي استأثر بالخير لنفسه ومن معه لم يحكم بما شرع الله فيه .
(وسلوا الله حقكم) نصيبكم وما هو لكم ؛ فلن يضيع عليكم ، فسلوا الله ذلك تحصلون عليه إما في الدنيا أو في الآخرة .
فطريقة العلاج الصبر والدعاء .
ففيه عدم جواز الخروج عليهم بالسيف ؛ إذ لم يرشد النبي إلى ذلك مع سؤالهم ، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز .
وفيه ردّ على الذين يجيزون الخروج لإنكار المنكر ؛ فهؤلاء وقع منهم المنكر ، ومع ذلك لم يأمر النبي بالخروج عليهم لتغيير المنكر .
وقال في الرواية الثانية (من كره من أميره شيء فليصبر) وشيئا نكرة في سياق الشرط تعم كل شيء ، ولقائل أن يقول : تعم ً حتى الكفر البواح ؟
فنقول :هذا غير داخل أصلاً لأن الحديث في الأمير المسلم ؛ لقوله » من أميره « ، وأميره لا يكون إلا مسلماً ، والكافر لا يكون أميراً على المسلم بالإجماع .
الإجماع يخصّ الأمير المسلم من عموم قوله » من أميره « ، وبقوله تعالى : { ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً } [النساء : 141] .
وأما قوله (فليصبر) فأمرٌ ، والأمر يدلّ على الوجوب ، والخروج على الحاكم ينافي الصبر .
ففي الحديث تحريم الخروج على الحاكم المسلم ؛ لأن الخروج عليه يؤدي إلى مفاسد أعظم من المفاسد التي وقع فيها بكثير ، وقد نقل غير واحد الإجماع على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه ، وأن طاعته خير من الخروج عليه ؛ لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء .
وقال فيه » : فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية « .
ومعنى » فإنه من خرج من السلطان « ؛ أي خرج من طاعة السلطان .
» شبراً « ؛ أي ولو قدراً قليلاً ، والمراد عصيانه ومحاربته .
» مات ميتة جاهلية « ؛ أي حالة موته كموت أهل الجاهلية ، فإنهم لم يكونوا يعرفون أميراً ولا طاعة له عندهم ؛ فيموت ضالاً كضلالهم .
وأما الرواية الثالثة ؛ ففيها بيعة عبادة بن الصامت ومن معه النبي ، وفيها أنهم بايعوه (على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا) .
ومعنى (منشطنا) ؛ أي في حال نشاطنا .
ويحصل النشاط للسمع والطاعة عندما نحب العمل ونرغب فيه أي الذي أمرنا به .
و (مكرهنا) ؛ أي وفي حال كراهتنا للسمع والطاعة له ، فنسمع ونطيع .
(عسرنا ويسرنا) ؛ أي وفي حال الشدة والمشقة علينا ، وفي حال اليسر والسهولة .
قال (وأثرة علينا) ؛ أي في حال رأينا أمراءنا يخصون أنفسهم بالخيرات ويمنعوننا حقوقنا منها .
ففي جميع هذه الحالات نسمع ونطيع .
وهذا مخصوص بقوله » : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق « ، وقوله » : إنما الطاعة في المعروف « .
وهذا الحديث له قصة ، وهي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيشا، وأمر عليهم رجلا، فأوقد نارا، وقال: ادخلوها، فأراد ناس أن يدخلوها، وقال الآخرون: إنا قد فررنا منها، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: »لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة«، وقال للآخرين قولا حسنا، وقال: »لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف« ، أي فيما هو جائز شرعا لا فيما حرم الله .
قال (وأن لا ننازع الأمر أهله) ؛ أي لا نحارب الملوك والأمراء لنحصل على الملك والإمارة منهم .
وغالب الذين يخرجون على الحكام يطلبون الدنيا ؛ إما الإمارة أو المال ، ومنهم الخوارج .
لذلك سئل الحسن البصري فيما يذكر عنه :
ما تقول في الخوارج ؟ قال : هم أصحاب دنيا – هؤلاء الخوارج الذين وصفه الله بما وصفهم به من صلاة وعبادة - قال : ومن أين قلت ذلك وأحدهم يخرج في الرمح حتى ينكسر فيه ويخرج من أهله وولده ؟ أي يضحي بنفسه ولا يبالي ويندفع للقتال ،
قال الحسن : حدثني عن السلطان ؛ أيمنعك من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحج والعمرة ؟ قال : لا ، قال : فأراه إنما منعك الدنيا فقاتلته عليها .
لذلك أول من خرج منهم خرج للدنيا ، اعترض على النبي صلى الله عليه وسلم في قسمة المال ، أعطى النبي صلى الله عليه وسلم بعض المؤلفة أكثر من غيرهم ، وهذا الرجل إما انه أخذ أقل من غيره أو لم يأخذ فلم يعجبه فاعترض على النبي صلى الله عليه وسلم .

وهذا ما رأيناه اليوم هاهم يتنازعون على السلطة في سوريا .
قال في الحديث : (إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان) .
فلا يجوز الخروج على الحاكم إلا عند رؤية كفر بواح ، أي أن نرى كفراً واضحاً ظاهراً بيّناً لا خفاء فيه ولا إشكال ، مذاع معلن .
ثم بعد أن نرى هذا الكفر ؛ لا يجوز الخروج إلا عند وجود القدرة ؛ لقوله تعالى : { فاتقوا الله ما استطعتم } ، قوله : { لا يكلف الله نفسا إلا وسعها } وعند تقدير المصلحة والمفسدة ، كما تدل على ذلك قواعد الشريعة ، ومن ذلك القاعدة العظيمة التي تقول إن الشريعة جاءت لتحقيق المصالح وتكميلها ، ودرء المفاسد وتقليلها
فالخروج مع عدم وجود القدرة يؤدي إلى مفاسد عظيمة لا تحقق الإصلاح المطلوب ، بل تؤدي إلى مفاسد عظيمة .
والأحاديث التي ذكرها الإمام البخاري تدل على أن المفسدة المتوقعة إذا كانت أعظم من المصلحة حرم الخروج ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يمنع من الخروج على الحاكم الظالم الفاسق مع إفساده في الأرض إلا لأن المفسدة تغلب المصلحة عند الخروج عليهم فوجب تسكين الدهماء ، وحقن الدماء .
ومن هنا أخذ شيخ الإسلام القاعدة التي تقول إن أي قتال مفسدته أعظم من مصلحته فهو قتال فتنة .
فلابد من تقدير المصلحة والمفسدة ومعرفة القدرة وإعطاءها قدرها ، وأنتم رأيتم ما حصل في سوريا ، وقبل ذلك ما كان عليه الحال في ليبيا ، لولا الله أولا ثم الثروات التي في ليبيا وأطماع الغرب فيها لما حصل ما حصل ولما وصلت إلى هي عليه الآن ، مع أنها قدمت من التنازلات ما الله به عليم ، حتى تمكنوا من إسقاط الطاغية الذي كان فيها .
وكذلك الحال اليوم في سوريا لا يختلف اثنان ممن يعرف من هم النصيرية ومن هم البعثية في كفر حاكمها ، لكن بداية الأمر قلنا لا يجوز الخروج ؛ لأن المفسدة التي ستقع أعظم وأكبر مما هو حاصل ، فلا توجد قدرة ، ولكن لم يسمع كثير من الدهماء ما قلنا ، وخرجوا وحصل ما حصل ، الآن من الذي سيخلصها مما هي فيه ، لا يخلصها إلا الله تبارك وتعالى من الوحل الذي علقت فيه ، هذه نتائج عدم السماع لكلام العلماء الربانيين ، ونتائج عدم الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وإلا فلو تفقهنا في دين الله ، وتعلمنا أسباب الفتن ، وكيف النجاة منها ، والاحتراز من الوقوع في أسبابها ؛ لما وقع ما وقع ولا حصل ما حصل . والله المستعان .